

القسم  
الثاني

الأندلس

obeikandi.com

## مدخل بيليوغرافى لتارىخ الأندلس

كما فعلنا فى دراستنا للجزء المغربى من هذا الكتاب ، عندما قدمنا له بمقدمة بيليوغرافية ، تعرف بالموارد التاريخية التى نعتمد عليها فى كتابة تاريخه ، فكذلك نبدأ تاريخ الأندلس بمقدمة بيليوغرافية وصفية ، نعرف فيها بموارده ما بين أصول ومراجع .

فىما يتصل بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية فى عصورها الإسلامية ، لدينا روايتان أساسيتان: الرواية العربية ، والرواية غير العربية ما بين لاتينية وإسبانية وبرتغالية . ولا غنى لمؤرخ الأندلس عن الرجوع إلى الرواية غير العربية بمختلف لغاتها وخاصة ما كتب منها فى شبه جزيرة إيبيرية باللاتينية أو الإسبانية أو البرتغالية ، لأن تاريخ الأندلس كما ذكرنا آنفاً إنما هو تاريخ صراع بين الإسلام والنصرانية على مصير شبه الجزيرة ، والكثيرون جداً من العرب الذين يكتبون تاريخ الأندلس يقتصرون على الروايات العربية على اعتبار أن الأندلس كان قطراً إسلامياً عربياً ، مثله فى ذلك مثل مصر والشام والعراق مثلاً ، ومن هنا فإن أهمية الرواية غير العربية أهمية ثانوية . ولكننا رأينا فىما روينا من تاريخ الأندلس أن الأمر على خلاف ذلك ، فإن العرب عندما دخلوا شبه الجزيرة ، دفعوا بمن بقى من سادتها القدماء ، وهم القوط ومن انضم إليهم ممن اختار مقاومة الإسلام ، إلى أقاصى الشمال وحصرهم عند سفوح جبال ألبرت من ناحية ، وخلف جبال الكنتبرية من ناحية أخرى فىما يعرف « بأشترىس وجليقية » . وفى هذه الأراضى القليلة الجبلية الوعرة انحصر أولئك النصارى وعاشوا آمنين ، خاصة بعد أن أخرجوا من أشترىس الحامية العربية التى كان موسى بن نصير قد خلفها قريباً من الموضوع الذى وقعت فيه موقعة « كوفادونجا » عند جبل شيبية ، وهى الصيغة العربية لاسمه بالإسبانية Auseba .

وسنرى أن المسلمين - بسبب قلتهم عددياً أول الأمر ، ثم بسبب الحروب التى نشبت بينهم وبعضهم البعض خلال عصر الولاة ، وما كان بينهم وبين البربر من

نزاعٍ طويلٍ ، وما أعقب ذلك من مجاعةٍ شملت الأندلس بعد ثلاثين سنة تقريباً من الفتح أى حوالى سنة ١٢٣هـ / ٧٤٠م — تركوا الربع الشمالى الغربى لشبه الجزيرة خالياً من سكانه المسلمين ، فأصبح منطقةً فراغ لا يعمرها أحد ، ابتداء من منتصف المسافة بين نهري « الدويرو والمنيو » حتى ساحل بسكاي ، فكانت تلك فرصة لنصارى الإسبان المنحصرين فى الشمال لكى يمتدوا إلى الجنوب ويعمروا هذه النواحي وخاصةً ما كان فيها من مدنٍ ومراكزٍ عسكريةٍ رومانيةٍ قديمةٍ من أمثال « ليون وأماية وأشترقة وسهاجون » وما إليها . وفى عصر الملك ألفونسو الثالث نقلوا عاصمتهم إلى ليون وسيطروا تماماً على حوض المنيو ، وامتدوا إلى حوض منديق ، بل وصلوا إلى حوض الدويرو أى أن مملكتهم التى أصبحت تسمى مملكة أشتريس وليون ، أصبحت دولةً قويةً ذات أراضٍ واسعةٍ ومواردٍ وافرةٍ ومدنٍ عامرةٍ ونظمٍ سياسيةٍ قائمةٍ .

هذا عن الجانب الغربى من شمال شبه الجزيرة . أما الجانب الشرقى ويشمل حوض نهر الإبرو ، وما يليه من الأراضى شمالاً حتى « لاردة وشقة وتُطيلة » ، أى ذلك القسم من الأندلس الذى عرف باسم « الثغر الأعلى » ، فإن سلطان العرب قد وقف عند سفوح جبال ألبرت المعروفة بالبرانس ، وانحصرت قواتٌ نصرانيةٌ فى إماراتٍ صغيرةٍ قامت فى جبال ألبرت ، وجزءٍ من السهول جنوبها ، وأهمها فى الغرب إلى الشرق نبرة وعاصمتها « بلبونة » ثم ثلاث كونتينات جبليةٍ صغيرةٍ هى من الغرب إلى الشرق « أرغون وشبرب وريياجورثا » ، وتلك هى الكونتينات الثلاثة التى ستتألف منها فيما بعد مملكة أرغون ، أما فى أقصى الشرق أى فى المنطقة الواقعة شمالى مصب نهر إبرو والتى تمتد عبر السهل الساحلى المؤدى إلى غالة وهى فرنسا ، وتستمر حتى مصب نهر الرون فقد كانت تسمى « سبتمانية » وقد ملكها العرب أول الأمر ثم تركوها بعد انهزامهم فى موقعة بلاط الشهداء ١١٤هـ / ٧٣٢م وتمكنت مملكة الفرنجة من احتلالها فى نفس الوقت الذى قامت فيه الإمارة الأموية الأندلسية ، وأنشأت فيه ما عرف بالثغر الإشباني وتحول فيما بعد إلى كونتينةٍ قطلونيةٍ ، ولم يحاول المسلمون إلا فى مناسباتٍ قليلةٍ استعادة قطلونية ، فظلت أرضاً نصرانيةً فرنجيةً أولاً ثم إسبانيةً بعد ذلك . وقد انضمت قطلونيةٌ هذه فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ونشأت عن ذلك مملكة

أرغون الكبيرة ، التي تضاعف حجمها بعد استيلاء ملوكها على الثغر الأعلى الأندلسى وقاعدته سرقسطة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨ م على يد ألفونسو الأول المعروف بالمحارب . وقد بلغت هذه المملكة أوجها في عهد ملكها « خايمة » الأول المعروف بالكبير الذى تمكن من الاستيلاء على شرق الأندلس حتى بلنسية وضم إلى بلاده الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار ، فأصبحت مملكة أرغون بذلك مملكة واسعة ثرية ، تنافس في سيادة شبه الجزيرة مملكة قشتالة وليون التى توسعت على حساب المسلمين وأصبحت أقوى دول الجزيرة بعد استيلاء ملكها ألفونسو السادس على طليطلة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م .

وعندما اتَّحدت مملكة قشتالة وليون مع مملكة أرغون بزواج « إيزابلا » ملكة قشتالة وليون « بفيليب الثانى » ملك أرغون ، أصبحت الممالك النصرانية هى القوة الرئيسية في شبه الجزيرة ، خاصة إذا ذكرنا قيام مملكة البرتغال في غرب شبه الجزيرة جنوب نهر الدويرو .

ومعنى ذلك أن تاريخ شبه الجزيرة في العصور الإسلامية لا يقتصر على دول المسلمين بل يشمل دول المسلمين والنصارى معا ، ولا يكتمل هذا التاريخ إلا إذا درس المؤرخ الجانبين معا بنفس العناية والاهتمام ، لأن تاريخ شبه الجزيرة أيام الإسلام كان صراعاً متصللاً على المصير ، والاقتصار على دراسة الجانب العربى لا يعطى إلا نصف الصورة فقط . وإذا كنا ندرس عبَّاد الرحمن الثلاثة : الداخل والأوسط والناصر لدين الله ، ونقفى عليهم بتاريخ الحكم المستنصر وعصره الزاهر والمنصور محمد بن أبى عامر وما بلغه الأندلس أيامه من قوة لا يكاد يقف في وجهها أحد ، فإننا ينبغي أيضاً أن نذكر أنه كان في الناحية الأخرى كذلك ملوك عظام لهم أكبر الأثر في تشكيل صورة الجزيرة ، بل انتهت قصة الأندلس بالصورة التى صاغوها فيها ، من أمثال ألفونسو الأول والثانى والثالث ملوك ليون ، وسانشو الكبير ملك نبرة وألفونسو الأول المحارب ملك أرغون . وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون . وألفونسو الثانى ملك قشتالة وليون أيضاً وخايمة الكبير ملك أرغون ، « وألفونسو - أنريكى » ملك البرتغال .

لهذا يتعين على دارس الأندلس لكى تكون دراسته صحيحة وعلى أساس ، أن يدرس إسبانيا النصرانية كما يدرس إسبانيا الإسلامية ، حتى يخرج في النهاية

بصورة معقولة تفسر له السبب فيما نسميه عادة بضياح الأندلس وهذه أيضاً تسمية خاطئة لأن بلاد شبه الجزيرة إذا كانت قد ضاعت من المسلمين فقد كسبها آخرون وما نسميه نحن ضياحاً إنما هو كسبٌ بالنسبة لهم . وميزان الحكم في النهاية هو قاعدة الحياة على وجه الأرض ، وهى أنها صراعٌ بين البشر والغلبة للأقوى والأصلح والقادر على الصمود ومواصلة الكفاح .

لهذا قلنا إن موارد تاريخ الأندلس تتكون من روايتين ، الرواية العربية أى الأصول والمراجع المكتوبة بالعربية ، والرواية غير العربية أى المؤلفات والمدونات والوثائق وما يجرى مجراها المكتوب بغير العربية .

## الرواية العربية :

كتب العرب في الأندلس وعن الأندلس كثيراً جداً ولكن الجانب الأكبر مما كتب الأندلسيون عن أنفسهم ضاع في غمرة الصراع الطويل بين المسلمين والنصارى على مصير شبه الجزيرة ، فجزء منه فقد كما يفقد الكثير من الكتب لقلّة نسّخه ، وبعضها حمله المهاجرون الأندلسيون إلى مهاجرهم فتبدد معظمه وبقي أقله ، وجزء آخر قضى عليه الإسبان والبرتغاليون بالإحراق والتدمير .

ولا غرابة والحالة هذه في أننا لا نملك شيئاً كاملاً من مطوّلات تاريخ الأندلس ، وقد ألف الأندلسيون في تاريخ بلادهم مطوّلات كثيرة فلم يبق لنا منها إلا أطرافٌ نعثر عليها قطعاً في المكتبات أو تفاريق في كتب ألفت في عصور متأخرة في المشرق . ورغم ذلك فإن ما لدينا من أصول التاريخ الأندلسي كثيرٌ وافرٌ والحمد لله ، ولقد قال « غرسيه غومس » في كتابه الصغير المسمى « الشعر الأندلسي » وقد ترجمناه للعربية ، إننا لا نملك من دواوين الشعر الأندلسي إلا عدداً قليلاً جداً ، وبقية ما لدينا من ذلك الشعر إنما هى نثارٌ كالنثار الذى يتبقى من تحطم إناءٍ من البلّور ، ومع ذلك فعلى أساس هذا النثار نستطيع أن نكتب تاريخ الشعر الأندلسي لأنه كان من الوفرة بحيث أن القليل الباقي منه يمكننا من كتابة تاريخ متصل وكامل تقريباً للشعر الأندلسي .

وأهم أصول التاريخ الأندلسي هو ما بقى لنا من كتابات أحمد بن

محمد الرازى أبى التاريخ والجغرافية فى الأندلس ، وقد أشرنا إليها خلال كلامنا فى بليوغرافية المغرب ، ومن ثم فلن نتحدث عنها هنا .

ومن حسن الحظ أن عميد مؤرخى الأندلس بعد محمد بن محمد الرازى وابنه عيسى بن أحمد ، وابن حيان ، وهو أبو مروان حيان بن خلف بن صعب بن حيان ابن محمد بن حيان صاحب المقتبس ، المولود فى قرطبة سنة ٢٧٧هـ / ٩٨٧م والمتوفى فيها سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦م وقد وفاه حقه من الدراسة الدكتور محمود على مكى فى المقدمة الضافية التى كتبها للجزء الذى نشره من مقتبس ابن حيان ويتناول أواخر عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر ابنه الأمير محمد ونشره فى بيروت مع تعليقات وافية سنة ١٩٧٢ .

وقد نشر جزءاً من مقتبس ابن حيان ، « الأب ملشور أنتونيا » فى باريس سنة ١٩٣٧ ويتناول عصر الأمير عبد الله .

ثم نشر الدكتور عبد الرحمن على الحجى فى بيروت سنة ١٩٦٥م جزءاً آخر من مقتبس ابن حيان يتناول خمس سنوات من عصر الحكم المستنصر .

وأخيراً نشر مستشرق إسباني هو الدكتور « بدرو شالميتا سندررون » بالاشتراك مع الدكتور محمود صبح جزءاً كبيراً من المقتبس يتناول نحو عشرين سنة من تاريخ عبد الرحمن الناصر لدين الله . وبهذا يكون بين أيدينا جانب لا بأس به من تاريخ ابن حيان للأندلس الذى يعتبر أحسن ما بقى لنا مما كتب فى ذلك التاريخ ، لأن ابن حيان استقصى فى كتابه هذا ، المقتبس ، ما كتبه مؤرخون كبار سابقون عليه من أمثال أحمد بن محمد الرازى وعيسى بن أحمد الرازى ومعاوية بن هشام الشبانسى صاحب كتاب « تاريخ بنى أمية فى الأندلس » وأبى بكر بن عبادة بن ماء السماء الذى ألف كتاب « تاريخ شعراء الأندلس » وأبو الوليد الفرضى وكان له كتاب كبير فى تاريخ الأندلس ، وسكن بن إبراهيم الكاتب وأبى عمر يوسف بن عبد البر وغيرهم .

ولابن حيان كتاب آخر يعتبر إلى الآن فى حكم المفقود وهو كتاب « المتين » ، وهو كتاب ألفه ابن حيان فى تاريخ عصره مطولاً وافراً بالتفاصيل ، وقد بدأه قبل كتابه المقتبس ثم قطعه عندما قامت الفتنة ثم أتمه بعد ذلك ، ودون فيه تراجم أهل عصره وأهم ما وقع فيه من أحداث ، وعصره هو عصر الطوائف أى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

وكما احتفظ لنا ابن حيان في المقتبس ، بالكثير من قطع تاريخ الرازي وغيره ممن سبقه إلى كتابة تاريخ الأندلس ، كذلك احتفظ لنا مؤرخ أندلسي آخر هو «ابن بسّام أبو الحسن على الشنتريني» المتوفى في قرطبة سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م ، بقطع كبيرة من كتاب المتين لابن حيان ، التي تتناول نفراً كثيراً من كبار الشخصيات الأندلسية في عصر الطوائف . وكتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسّام كتاب في تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ابن بسّام ، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام : أدباء الموسطة أى وسط الأندلس ما بين شعراء وناثرين ، وأدباء غرب الأندلس ، وأدباء شرق الأندلس . وقد عثرنا على الكتاب كاملاً ونشرت منه أجزاء تتناول الموسطة والغرب وبقي منه جزء الشرق ، وتراجمه وتراجم ابن بسّام وافية مطولة ، تلقى ضوءاً على أحوال الأندلس في عصره وقد استوعب في كلامه جانباً كبيراً مما كتبه ابن حيان في « المتين » الذي ضاع .

ومن أصول تاريخ الأندلس التي لا يستغنى إنسان عن قراءتها ، كتابان صغيران ولكنهما على أكبر جانب من الأهمية : الأول هو كتاب « الأخبار المجموعة » لمؤلف مجهول وقد نشره مع مقدمة ضافية المستشرق الإسباني « لافونتي الكنتارا » في مدريد سنة ١٨٦٧م ودرسه دراسةً مستفيضةً « خوليان ريبيرا » وهو من أعظم المستشرقين الإسبان أو شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان كما يسمى ، وخرج منه بأن ذلك الكتاب من تأليف عددٍ من الأندلسيين من أبناء البيوت الكبيرة الموالين للبيت الأموي ، تناوبوا على كتابته وسجلوا لنا أحداثاً موثوقاً في صحتها على أكبر جانب من الأهمية . ثم درس هذا الكتاب مستشرقٌ أسباني آخر هو « سانشيت البورونوث » Sanchez Alboronoth وألف فيه كتاباً ضخماً فيه فوائد كثيرة وإن كان فيه كذلك لغوٌ كثيرٌ لأن الرجل لم يكن يحسن العربية ، رغم أنه يعتبر من أكابر مؤرخي إسبانيا ، وقد اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية اقتحاماً .

والأصل الثاني هو كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبي بكر محمد بن القوطية ، المتوفى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م ، وهو كتابٌ عظيم القيمة لأن مؤلفه من حفدة « سارة » القوطية حفيدة غيطشة الذي غصبه لذريق عرش الأندلس وكان أبناؤه من أعوان المسلمين في فتح تلك البلاد ، وقد قصدت « سارة » الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في دمشق لتشكو إليه ظلامه أصابتها فأكرمها

وزوجها أحد مواليه ، وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف «بابن القوطية» الذى نتحدث عنه ، هو أحد أحفاد ذلك المولى .

كان ابن القوطية عالماً بال نحو حافظاً للغة متقدماً فيها على أهل عصره كما يقول ابن الفرضى ، وكان شاعراً سلس القريض ، وهو تلميذ أبى عمر بن لبابة الفقيه الأندلسى الكبير ، والكتاب لا يقتصر على تاريخ افتتاح الأندلس ، وإنما هو مجموعة من الأخبار عن أمراء الأندلس وخلفائه ، مروية في نسق متصل متناسق ، والنسخة التى بقيت لنا هى سماع من أحد تلاميذه ، ومادة هذا الكتاب أصيلة يوثق فيها ، لأن ابن القوطية مثله في ذلك مثل معظم أهل الفكر في الأندلس ، كان من المتحمسين لبني أمية الأندلسيين ، شديد الصلة بهم ورجال دولتهم ، ولهذا فإن الأخبار التى يوردها على جانب كبير من الأهمية . وقد نشر ذلك الكتاب « بسكوال دى جايانجوس » Pascual de Gayangos وترجمه إلى الإسبانية ترجمةً بليغةً تعتبر قطعة أدبية « خوليان ريبيرا » Julian Ribera الذى قلنا إنه شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان .

وتلا هذه الأصول ذات القيمة التاريخية العظيمة ، كتب ألفت في عصور متأخرة ، حفظت لنا الكثير مما ضاع من أصول التاريخ الأندلسى وأهمها :

— « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » ، ومؤلفه أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى المقرئ المتوفى في القاهرة في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م . وقد نشر هذا الكتاب أكثر من مرة ، فنشر في مطبعة بولاق ، ثم نشر القسم الأول منه في مجلدين كبيرين نشر من المستشرقين في هولندا على رأسهم المستشرق المشهور « راين هارت دوزى » ، ثم أعاد نشره كاملاً « محيى الدين عبد الحميد » في القاهرة سنة ١٩٥٠ م وما بعدها بدون فهرس في ثمانية مجلدات ، ثم نشره أخيراً نشرة كاملة بفهارس الدكتور «إحسان عباس» في بيروت سنة ١٩٦٨ م في ثمانية مجلدات بما في ذلك جزء الفهارس .

هذا الكتاب فريد في بابه لأن قصد مؤلفه في أول الأمر كان الترجمة للسان الدين ابن الخطيب الوزير الغرناطى المعروف ، الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، ولكن المقرئ التلمسانى الذى وفد على الشرق في تلمسان في عصر كثر الحديث فيه

عن الأندلس ومحنتها ، رأى أن يقدم لتاريخ ابن الخطيب بمقدمة وافية عن الأندلس ، بلغت أكثر من نصف الكتاب ، وهى وحدها تقع فى أربعة مجلدات كبار ، وقد ألف الرجل هذا الكتاب على طريقة الجمع والتصنيف وتأليف المقتبسات بعضها مع بعض ، ومعظمه نقول تتراوح بين فقرات قصيرة إلى كتب كاملة . وقد قسم الرجل القسم الأول من كتابه الذى يتناول تاريخ الأندلس إلى فصول طوال : الأول فى صفة جزيرة الأندلس ، وهو وصف أدبى تاريخى يختلط فيه الشعر بالنثر ، ولكنه يضم مادة جغرافية ذات قيمة كبرى ، والفصل الثانى يتناول افتتاح الأندلس بتطويل وجمع حافل بالفوائد ، ثم يخصص فصلين لما جادت به قرائح الأندلسيين من بديع الشعر والنثر ، ثم يفرد فصلاً لقرطبة ومحاسنها ، وفصلين الأول منهما لمن وفد على الأندلس من الشرق والثانى لمن انتقل من أهل الأندلس إلى المشرق ، والتراجم هنا مستفيضة ممتعة ، وفى أثناء ذلك يقصد الرجل جانباً كبيراً من تاريخ الأندلس السياسى والأدبى ثم يختم هذه المقدمة الطويلة بفصل عن ضياع الأندلس يذكر فيه الأحداث الأسيفة التى انتهت بخروج ذلك القطر من عالم الإسلام .

أما الجزء الخاص بابن الخطيب فيقع فى ثلاثة أجزاء ، ويتناول تاريخ ذلك الوزير الأديب الشاعر المؤرخ بتفصيل كبير ، ويتحدث عن عصره ومعاصريه وشيوخه وتلاميذه ، ويورد نماذج كثيرة من كلام ابن الخطيب ومعاصريه .

والكتاب على هذا النحو خليط لا يستريح الإنسان إليه أحياناً ، لأن الرجل يجرى فيه على طريقة الاستطراد ، فقد يكون فى سياق ترجمة رجل ثم يمر ذكر رجل آخر فيترجم له بعد أن يقطع الترجمة الأولى ، ثم يعود إليها بعد نحو عشرين صفحة أحياناً ، ولكن الذى يستوقف النظر أن الكتاب طريف جداً ، لأن هذا الاستطراد ينقل الإنسان من جو إلى جو ، ومن موضوع إلى موضوع ، وينتهى القارئ فى النهاية بصورة واضحة جداً عن الأندلس ، تكونت من مقتبسات وضعت حطباً بليل فى بعض الأحيان ولكنها تعطى فى النهاية صورة متكاملة على الطريقة الفنية المعروفة باسم « الجشتالت » أى الصورة العامة .

ويشبه هذا الكتاب من كتب المقرئ كتاب « أزهار الرياض فى أخبار عياض »

وهو القاضى « عياض بن موسى اليحصبى » المغربى الأندلسى الذى نذكر له كتاب « الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى » .

ويقع هذا الكتاب فى ثلاثة مجلدات ، وقد نشر فى القاهرة بتحقيق « مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى » ، ( ١٩٣٩ - ١٩٤٢ م ) وفى هذا الكتاب أيضا الذى أداره المقرئ على القاضى عياض يتبع نفس الطريقة ، الاقتباس والاستطراد والجمع والتوفيق ، ولكنه يعتبر كذلك من أوثق ما لدينا عن الأندلس فى عصوره المتأخرة ، لأن المقرئ عندما ذكر تلاميذ عياض استرسل حتى وصل إلى قرب نهاية الأندلس ، ومادة هذا الكتاب مثلها مثل مادة نفع الطيب موثوق فيها لأن المقرئ كان صدوقاً قوياً الذاكرة يعتمد على أصول حملها معه وإن كان هو نفسه يزعم أنه كتب كل ذلك من ذاكرته .

ومن المراجع الأساسية التى نعتمد عليها فى كتابة تاريخ الأندلس كتاب « البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » ، لابن عذارى المراكشى المتوفى بعد سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وقد تحدثنا عنه فى كلامنا عن مراجع تاريخ المغرب ، ونضيف هنا أن ابن عذارى خصص للأندلس معظم كتابه الذى يتكون كما ذكرنا من خمسة مجلدات : الأول عن تاريخ المغرب إلى آخر أيام دولة بنى زيرى الصنهاجيين ، مع فصول معترضة ذات أهمية كبرى عن فترات من تاريخ المغرب ونواح نواحيه تتخطى ذلك التاريخ ، والجزء الثانى يتناول تاريخ الأندلس إلى موت المنصور محمد بن أبى عامر ، والجزء الثالث يتحدث عن عصر الطوائف ، والجزء الرابع صغير يجمع ما عثرنا عليه من تاريخ المرابطين وهو جزء ناقص سقط منه نحو خمسين سنة من تاريخ هذه الدولة تتعلق بمعظم أيام يوسف بن تاشفين ، والجزء الخامس يتناول تاريخ الموحيدين ، ومعنى ذلك أن معظم هذا الكتاب يدور على تاريخ الأندلس ، ومن هنا كانت أهميته بالنسبة لنا ، ويتميز الكتاب كما ذكرنا بأن صاحبه ينقل قطعاً كاملة من مؤلفات أصيلة ضاعت الآن ، وإذا ذكر شيئاً من عنده فإننا نجده اختصاراً من مؤلفات ذات قيمة أصيلة ، والكتاب على هذا فى جملته يعتبر من الأصول ، وإن كان قد ألف فى زمن متأخر ولا يستغنى عنه أى دارس لتاريخ الأندلس ، وإن كنا فى حاجة إلى طبعة جديدة للجزء الخامس الخاص بالموحيدين ، وفهارس ضافية لذلك الكتاب .

ثم تلا ذلك في الأهمية المكتبة الأندلسية ويراد بها مجموعة من كتب التراجم التي ألفها علماء من أهل الأندلس عن علماء بلادهم ، وهذه المجموعة تترابط فيما بينها وتتكامل على مثال ما تتكامل كتب الوفيات في المشرق ، فمن المعروف عندنا أن هناك سلسلة من كتب الوفيات أُلِّفت في المشرق ، تتناول التراجم من أول عصور الإسلام إلى العصر المملوكي . فهناك « وفيات الأعيان لابن خلكان » ثم يكمله « فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي » ثم يواصله ويستدرِك فواته كتاب « الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي » ، ثم نختم السلسلة بكتاب « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لأبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى » .

كذلك في الأندلس نجد سلسلة من كتب التراجم ألفها علماء أندلسيون أجلاء يكمل بعضها بعضاً ويسد بعضها فوات بعض ، وقد بدأ ينشر هذه السلسلة المستشرقون الإسبان الأوائل من أمثال « فرنسيسكو كوديرا » و « خوليان ريبيرا » ومن في طبقتهم ، وهذه الكتب هي :

- « تاريخ علماء الأندلس » للحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى بن الفرضى ( ٣٥١ - ٤٠٣ هـ / ٩٦٢ - ١٠١٢ م ) وقد حققه فرنسيس كوديرا ونشره في مدريد سنة ١٨٨٦ وأعيد تحقيقه وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ويمتاز أبو الوليد بن الفرضى بأنه من العلماء الأثبات ، فقد كان مؤرخاً وفقهياً وشيخاً جليلاً صدوقاً ومن ثم فنحن نثق في كلامه ، ولم يبق لنا من مؤلفاته الكثيرة في التاريخ إلا ذلك الكتاب القيم ، الذي يتناول تاريخ علماء الأندلس من أول الفتح إلى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م .

- « بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى المتوفى في مرسية في ٢٥ ربيع الآخر ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م . وهو يواصل تراجم ابن الفرضى ويهتم اهتماماً خاصاً بأهل العلم والأدب . وقد اعتمد هذا الرجل في تراجمه على كتاب « جذوة المقتبس للحميدي » الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

- « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد

ابن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدى وهو من أهل ميورقة . وقد توفى في بغداد سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م وقد نشر ذلك الكتاب بعناية محمد بن تاويت الطنجى في القاهرة سنة ١٩٦٦م وكان الحميدى تلميذاً لابن حزم ، وقد ألف كتابه هذا في المشرق ولهذا نلاحظ أن تراجمه تشوبها بعض الأخطاء ، لأنه كتب بعيداً عن وطنه ومراجعته ، ولكن الكتاب في مجموعه عظيم القيمة ، وقد اعتمد عليه الضبى اعتماداً كاملاً حتى إننا نجد تراجم هذا الأخير نقلاً حرفياً عن جذوة الحميدى .

— كتاب « الصلة » لأبى القاسم خلف عبد الملك بن سعود بن بشكوال الأنصارى ( ٤٩٤ - ٥٧٨هـ / ١١٠١ - ١١٨٣م ) وابن بشكوال من أعظم علماء الأندلس وكان شيخ عصره حفظاً وصدقاً ورواية ، وكانت له مشاركة في التاريخ إلى جانب الفقه ، وكتابه هذا الذى يعتبر صلة ، أى إكمالاً لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، لا يقل أصالةً أو صدقاً عن تراجم ابن الفرضى ، بل إن تراجمه تمتاز بأنها أطول وأكثر تفصيلاً ، وقد نشر هذا الكتاب في مدريد أولاً ثم أعيد نشره في القاهرة سنة ١٩٦٦م على تحقيق مدريد .

— « صلة الصلة » لأبى جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير ( ٦٢٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٣١ - ١٣٠٨م ) وهذا الكتاب يواصل تراجم ابن بشكوال ويكمل فوائده وقد نشره ليفى بروفنسال في الرباط سنة ١٩٢٧م .

— « التكملة لكتاب الصلة » لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار ( ٥٩٥ - ٦٥٨هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠م ) .

وقد كان ابن الأبار من أعلم أهل الأندلس في عصره وأكثرهم حفظاً وتدقيقاً وأصدقهم روايةً ، وقد كتب كتابه هذا التكملة ، ليكمل تراجم ابن الزبير في كتاب الصلة ولكنه زاد عليه واستوسع بحيث أصبح كتاب التكملة من أوسع كتب التراجم الأندلسية التى لدينا - وقد نشر منه جزءان في مدريد ضمن المكتبة الأندلسية سنة ١٨٨٧م ثم عثر « الاركون » المستشرق الإسبانى على قطعة أخرى منه نشرت ضمن مجلد يضم أصولاً عربية أندلسية مختلفة ، تحت عنوان Mice- lenea في مدريد ، وبعد ذلك عثر « محمد بن أبى شنبر » العلامة الجزائرى على قطعة كبيرة في أول الكتاب تضم فاتحته وحرف الألف والباء ونشرها في الجزائر .

ولا بد من جمع هذا الكتاب كاملاً ، ونشره في نسقٍ واحدٍ ، لأن تراجمه تمتاز

بما تمتاز به مؤلفات ابن الأبار من علمٍ واسعٍ وحفظٍ دقيقٍ وتنبُّهٍ يستوقف النظر إلى حقائق الأمور .

- « الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة » لأبى عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الملك الأنصارى الأزدى المراكشى المشهور باسم عبد الملك المراكشى (٦٣٤ - ٧٠٣هـ / ١٢٣٦ - ١٣٠٤م) ويعتبر هذا الكتاب أوسع كتب التراجم الأندلسية والمغربية ، فهذا الرجل ألف كتاباً واسعاً في التراجم تقع نسخته المطبوعة في خمسة مجلداتٍ ( ولم تتم بعد ) وقد قام على تحقيقها الدكتوران محمد ابن شريفة وإحسان عباس ، وبدأ صدور المجلدات في بيروت سنة ١٩٦٤م . والميزة الكبرى لهذا الكتاب أن معظم تراجمه تتعلق برجالٍ من أهل عصره ، أى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وهو من العصور الغامضة في تاريخ الأندلس ، وتراجمه مطولةٌ وتقدم لنا إشارات ذات قيمة اجتماعية كبيرة ، وقد بلغ من حرص الرجل على التطويل وإيراد كل ما عنده ، إنه في أحيانٍ كثيرةٌ يورد نصوصَ كتبٍ كاملةٍ وإن كانت صغيرةً ، ولكننا ونحن نقرؤه نعيش في جو أهل العلم في الأندلس في القرن السابع الهجرى الذى تجلّت فيه علاماتُ نهايةِ الأندلسِ وضياعه ، وفي هذا العصر أيضاً قامت مملكة غرناطة . ومما يستوقف النظر أن أولئك العلماء الذين يترجم لهم كانوا ماضين في دراساتهم ورواياتهم منفصلين تقريباً عن الحياة السياسية في الأندلس ، ومن يقرأهم لا يكاد يحس بالمأساة الدائرة حولهم .

- ويكمل هذه المجموعة من كتب التراجم كتاب « الحلة السيرة » لابن الأبار الذى ذكرناه ، وقد نشر في القاهرة في جزئين سنة ١٩٦٣م بتحقيق كاتب هذه السطور ، وقد جمع فيه ابن الأبار تراجم الخلفاء والأمراء والرؤساء الذين أثار عنهم شعر يروى ، وقد ألفه تقريباً لأبى زكريا الحفصى بعد هجرته إلى تونس ، وتراجمه طويلةٌ مستقيضةٌ وأسلوبه جزلٌ متدفقٌ والرجل حافظٌ واعيةٌ ، وقد تنبه إلى أهمية ذلك الكتاب الذى يضم حشداً كبيراً من تراجم الرؤساء في المغرب والأندلس ، المستشرق راين هارت دوزى . ونشر تراجمه الأندلسية في كتاب مشهور بين أيدي دارسى الأندلس ، ثم نشر جزءاً كبيراً من تراجمه المغربية المستشرق « ماركوس ملر » ، ثم نشر النشرة الكاملة التى ذكرناها آنفاً .

ونختم الكلام عن أصول التاريخ الأندلسي بوقفه عند آخر الكبار من مؤرخي الأندلس وهو « لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني بن الخطيب » ( رجب ٧١٣ - ٧٧٦هـ / ١٣١٣ - ١٣٧٤ م ) .

وابن الخطيب بلا شك من أعظم مفكري الأندلس وكبار كتابه وشعرائه ، وقد عاش في العصر الغرناطي في أيام محمد الغنى بالله ووزر له وتولى أكبر المناصب ، وله حياة حافلة بالعمل العلمي والنشاط السياسي ، حتى ليصعب على الإنسان أن يفكر في أن هذا كله تم في حياة رجل واحد ، وقد ترجم له الأستاذ محمد عبد الله عنان ترجمة وافية في كتاب خاص به متداول بين أيدي الناس .

وقد ألف ابن الخطيب كتباً كثيرة في تاريخ الأندلس تعتبر عندنا من الأمهات ويهمننا هنا أن نذكر منها كتابين :

الأول : هو « إعلام الأعلام بأعمال الأعلام ممن بويغ قبل الاحتلام » ، ويعرف عادة باسم « أعمال الأعلام » ، وهو كتاب ضخم يقع في أجزاء كثيرة ، يهمننا منها القسم الثاني الذي نشره ليفي بروفنسال في بيروت سنة ١٩٥٦ م تحت عنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » وهو من أحسن كتب تاريخ الأندلس عندنا ، فقد كتبه الرجل عن علم ودراية ، واحتشد في تأليفه فجاء من أحسن ما لدينا من المؤلفات التي لا يستغنى عنها دارس تاريخ الأندلس .

والقسم الثالث من ذلك التاريخ يتناول تاريخ المغرب الإسلامي وقد حققه ونشره د. أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد بن إبراهيم الكتاني ونشر في الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ بعنوان « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » وهذا الجزء لا يقارن - بحال - بالقسم الثاني الذي كتبه ابن الخطيب عن الأندلس ، فهو تاريخ ناقص مضطرب السياق ، يبدو أن ابن الخطيب كتبه على عجل ، ولكنه على أي حال لا يخلو من فوائد تاريخية بين الحين والحين .

أما القسم الأول من ذلك الكتاب فيدور حول تاريخ المشرق وهو لم ينشر بعد ، وهو يخرج عن اختصاصنا هنا ، ولكننا أطلعنا عليه على أية حال ، وليس فيه ما يضيف كثيراً إلى تاريخ المشرق .

أما الكتاب الجليل الذي يعد مفخرة لابن الخطيب فهو « كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة » وهو كتاب ضخم ، تقع نسخته المطبوعة في أكثر من ألفي صفحة ،

تضم تاريخاً وافياً للأندلس وخاصة إقليم غرناطة ، وهو يبدأ بمقدمةٍ ضافيةٍ عن مملكة غرناطة ووصفها الجغرافي الذي يجعل لابن الخطيب مكاناً صدرأ بين الجغرافيين الأندلسيين ، ثم تلا ذلك التراجمُ الوافيةُ الضافيةُ لمئات من العلماء وكبار الشخصيات الأندلسية الغرناطية في الغالب . وقد قام على تحقيقه بصير يدعو للإعجاب الأستاذ محمد عبد الله عنان ونشره في أربعة أجزاء في القاهرة ابتداءً من سنة ١٩٧٤م وذلك بعد أن كان الموجود لدينا منه طبعةً هزيلةً صغيرةً نشرت في القاهرة قبل ذلك .

تلك هي أهم أصول تاريخ الأندلس التي ينبغي أن يدرسها مؤرخ ذلك القطر ، وهناك كذلك كتبٌ أخرى تسمو إلى مراتب الأصول مثل مؤلفات ابن حزم التاريخية ، وكتاب عبد الواحد المراكشي في تاريخ الموحدين ، ولكننا أشرنا أن نقتصر على هذه دون غيرها مكتفين بأن نذكر بقية الأصول الأندلسية ضمن بيان المراجع الذي سنورده في آخر هذا الكتاب .

## الأصول غير العربية :

قلنا إن مؤرخ الأندلس لابد أن يكون على علم بالأصول والمراجع غير العربية التي كتبت في تاريخ الأندلس وشبه الجزيرة الإيبيرية بصفة عامة وخاصة ما كتب منها بالإسبانية ، وقد سبق أن بينا أسباب ذلك .

وقد كتب الإسبان في تاريخهم كثيراً جداً وعندهم كما عندنا أصولٌ ومراجع . فأما الأصول فما كتب في العصور الوسطى ومعظمه ألفه رهبان بدأوا في كتابة تاريخ إسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي وهم في العادة يكتبون تواريخ عامة أي تواريخ للبشر جميعاً منذ الخلق ، كما كان يفعل بعض مؤرخي المسلمين . وهم في العادة يكتبون من ناحية دينية ، أي أنهم معادون للمسلمين عداً شديداً لا على أساس قومي بل على أساس ديني ، وهم بطبيعة الحال لا يعرفون عن الإسلام شيئاً ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محاولة هذه المعرفة ، مع أنهم كانوا يعيشون قريبين من المسلمين ، ولا نقول أنهم كانوا يعيشون بينهم ، لأن أولئك الرهبان المؤرخين الأول كانوا يكتبون وهم يعيشون في بلاد إسبانيا النصرانية

مبايعدين للإسلام منكرين إياه . وأقدم من كتب ووصلتنا كتابته مؤلفٌ مجهولٌ كتب تاريخاً ينسب إلى « البلدة » وعنوان هذا التاريخ Cronica Albeldinse وقد ألف سنة ٨٨٣ م ، وهو مجرد جدولٍ بالحوادث وأسماء الملوك ، مع ذكر قليلٍ لأخبار الصراع بين المسلمين والنصارى . وهذه الأخبار القليلة ذات فائدةٍ كبيرةٍ لأنها تضبط لنا تواريخٍ ومراحل ذلك الصراع وتسد الفراغات التي يمكن أن تكون قد خانت المؤرخين المسلمين .

ومن تلك المؤلفات الإسبانية الأولى تلك المعروفة باسم تاريخ العالم الذي كتبه « لوقا التودى » Lucas de Tuy : Historia Mundi وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢٣٦م وهو يعطينا بياناتٍ وافيةً عن ملوك القوط وملوك ليون ثم ملوك قشتالة وليون إلى عصره .

وقد عاصره تقريباً مؤرخٌ إسبانيٌّ عظيم الأهمية بالنسبة لنا يسمى Rodrigo Jimenez de Rada ، وكان أسقفاً لطليطلة وقد كتب تاريخاً مطولاً لإسبانيا حتى قرب وفاته سنة ١٢٤٧م ، وهذا الرجل يعطى تفاصيل مفيدة جداً بالنسبة لتاريخ قشتالة وليون والممالك النصرانية الأخرى ، وكذلك بالنسبة لتاريخ الأندلس واسمه Rerum in Hispania Gestorum Cronicon وقد نشر أول مرة في غرناطة سنة ١٩٤٥م وأعاد نشره A. Schott في مجموعته المسماة Hispania Illustrata الجزء الثاني من ص ٢٥ إلى ١٩٤ .

وقد اعتمد عليه الكثيرون جداً من مؤرخي إسبانيا النصرانية حتى قرابة العصر الحديث ، ولا يستغنى مؤرخ الأندلس عن مراجعة ذلك الكتاب في كل ما يتعلق بالعلاقات بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا الإسلامية . ومن هذا الطراز من الأصول الإسبانية كتب ألفها مستعربون ممن كانوا يعيشون بين المسلمين ويكتبون باللاتينية أو مستعربون هاجروا إلى إسبانيا النصرانية ، وهناك كتباً مدونات في التاريخ . ومن هؤلاء مؤرخ يسمى « إيزيدور الباجي » الذي كتب كتاباً في تاريخ مملكة أشتريس منذ بدايتها ويسميه الأب فلوريت بالمدونة الباجية Cronica Pacense وهو يعرف أحياناً باسم La Cronica Mazarabe de Cronica del Anonimo de Cordoba 724 ويسمى هذا الكتاب أحياناً باسم Cronica del Anonimo de Cordoba 724 لأن بعضهم يظن أن المؤلف كتب كتابه في قرطبة ، ويسمى أحياناً : Continuatio

Hispana لأنهم كانوا يظنون أنه إكمالٌ لتاريخ كتب قبله لإسبانيا القوطية ، ويغطى هذا الكتاب الحوادث من سنة ٦١١ - ٧٥٤ ميلادية .

ومن الأصول الجديرة بالثقة مدونة ألفها قس أشتورى يسمى El Beato de Liebana وقد سجل هذا الكتاب الخصومة المذهبية التى وقعت أثناء العصور الإسلامية بين كنيسة طليطلة وكنيسة إشبيلية التى تزعمها قسٌ مستعربٌ يسمى Elipando وقد ذكرنا مدونة « البلدة » التى تنسب إلى الموضع الذى عثر عليها فيها وهى قرية « البلدة » فى إقليم « ريوخا » وهذه المدونة تصل بتاريخ أشتريس وليون إلى سنة ٩٧٦ م ، أى إلى عصر الحكم المستنصر ، والمؤلف معاصرٌ لألفونسو الثالث ملك أشتريس وليون المعروف بالكبير والمتوفى سنة ٩١٠ م وقد أطلق عليه هذا الاسم « مومسن » وهو علامة ألمانيٌ تخصص فى الدراسات الرومانية وكتب فى تاريخ الرومان كثيراً ونشر الكثير من المخطوطات المتعلقة بتاريخ الرومان ، وله مجلدٌ ضخمٌ جمع فيه المخطوطات الإسبانية التى تناولت تاريخ الرومان والقوط ومن بينها مدونة « البلدة » هذه ، والمؤرخ الألمانى « تيودور مومسن » يسمى هذا الكتاب « الذيل الأبيض » Epitome Ovitense .

ومن هذا الطراز من المدونات مدونة تخص تاريخ إسبانيا فى عصر الملك « ومبا » حتى موت أردييو الأول ( ٦٧٢ - ٨٦٦ هـ / ١٢٧٣ - ١٤٦١ م ) ملك أشتريس وهذه المدونة تنسب إلى الملك ألفونسو الثالث الملقب بالكبير ، وإن كان هناك شك فى تلك النسبة ، لأن الباحثين الإسبان عثروا منها على مخطوطتين ، إحداهما مكتوبةٌ بأسلوبٍ سيئٍ حافلٍ بالأخطاء ، ويظن أن تلك هى التى كتبها ألفونسو الثالث بنفسه ، ومخطوطة أخرى منمقة مهذبة يظن أن قساً يسمى سبستيان قام بعملها وهذه المخطوطة تقص بالتفصيل تاريخ إسبانيا النصرانية حتى بدايات حكم ألفونسو الثالث وهى تنسب عادةً إلى الراهب سبستيان الذى أشرنا إليه .

وتشبه هذه المدونة ، مدونةٌ تنسب إلى راهبٍ يسمى « سام بيرو » ولهذا تسمى Cronica de Sampiro ، وقد عاش هذا الرجل فيما بين عامى ٩٧٠ - ١٠٤٢ م وقد عمل فى القصر فى أيام الملك برمودو الثانى وخلفه ألفونسو الخامس ثم أقيم قساً لمدينة أشرقة وكان الذى أقامه هو الملك سانشو الكبير Sancho el Mayor

ملك نبرة ، وهذا التاريخ يبدو وكأنه إكمالاً لدونة ألفونسو الثالث ، ويتناول الأحداث في عصر هذا الملك حتى بدايات حكم ألفونسو الثالث ملك ليون ( ٨٦٦ - ١٠٠٠ م ) .

ويجد القارئ بياناً بهذه المدونات الأساسية بالنسبة لتاريخ إسبانيا والأندلس في الفصل الأول من الجزء السادس من « تاريخ إسبانيا العام » الذي أشرف على كتابته الأستاذ « منندث بيدال » الذي سنذكره فيما بعد . ولهذا نكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه عن الأصول ، ونضيف أن راهباً إسبانياً يسمى الأب « فلوريت » جمع هذه المدونات كلها ونشرها في سلسلة من نحو ثلاثين مجلداً تسمى « إسبانيا المقدسة » El Padre Florez, Espana Sagrada ولا بد لأى باحث في تاريخ الأندلس من أن يرجع إلى ذلك المجموع وإلى المجموع الذى نشره « مومسن » وأشرنا إليه .

وننتقل الآن إلى المراجع أى إلى المؤلفات الإسبانية التى كتبها الإسبان في العصور الحديثة في تاريخ بلادهم ، وهى كثيرة جداً ومعظمها جيدٌ وإن اختلفت في القيمة وجهة النظر ، ونشير منها إلى مايلي :

- Jeronimo Zurita, Anales de la Corona de Aragon

وقد عاش الأب ثوريتا فيما بين سنتي ١٥١٢ - ١٥٨٠ م .

- Bernardo Brito, ( 1569 - 1671), Monarquia Lusitana Historia de Espana .

وهناك مجموعة من الكتب يحمل كل منها اسم « تاريخ إسبانيا » مع مفارقاتٍ يسيرة في هذا العنوان ، وأهم مؤلفيها :

Ambrosio de Morales - Esteban de Garibay -

P. Juan de Mariana - Juan de Ferreras -

Juan Francisco Masdeu - Alejandro Herculano -

Antonio Alcala Galiano - Modesto Lafuente y Rafael Alcantara .

ومن أهم التواريخ العامة لإسبانيا التى لا بد من الرجوع إليها في التاريخ الأندلسي مما كتب في الخمسين سنة الماضية ، ولا زال يعاد طبعها وتنقيحها

لتساير تطور الأبحاث التاريخية :

- Antonio Ballesteros Beretta, Historia de Espana y su Influencia en la Historia Universal ( 12 vols. Barcelona 1918 - 1941 ) .
- Luis Pericot, Historia de Espana. Gran Historia General de los Pueblos Hispánicos, ( 6 vols. Barcelona 1935 - 1962 ).
- Ramon Menendez Pidal, Historia de Espana. ( Espasa - Calpe ) 8 vols. Madrid 1935 - 1958 .

وهذان التأريخان اشترك في كتابة فصولهما عددٌ كبيرٌ من المؤرخين تحت إشراف العالمين المذكورين ، وتختلف القيمة العلمية لفصولهما اختلافاً بيّناً . وجديرٌ بالذكر أن المجلدين الرابع والخامس من التاريخ الذى أشرف على تحريره « رامون منندث بيدال » يتناولان تاريخ الأندلس وحضارته ، وهما ترجمة إسبانية لكتاب :

- Levi - Provincial, Histoire de l'Espagne Musulmane .

الطبعة الثانية - باريس سنة ١٩٥٥م وما بعدها . وقد قام بالترجمة الإسبانية المستشرق المعروف « إميليو غرسيه غومس » .

- Pedro Aguado Bleye, Historia de Espana. 3 vols. Madrid 1947 - 1958 .

ويعتبر هذا الكتاب من أحسن الكتب المتوسطة الحجم التى ألفت فى تاريخ إسبانيا ، والفصول الخاصة بالأندلس الإسلامى فيه جيدة .

- Fernando Soldevila, Historia de Espana. 8 vols. Barcelona 1952 - 1959 .

ومؤلف هذا الكتاب قطلونى ، وهو لهذا ينظر لتاريخ إسبانيا من الزاوية القطلونية ، والفصول الخاصة بالأندلس فيه تُقرأ بحذرٍ شديدٍ .

- Luis Garcia de Valdeavellano, Historia de Espana ( Madrid 1955 ) .

- Jaime Vicens Vives, Historia Social y Economica de Espana y America ( Barcelona, 1957 - 1959 ) .

أما الكتب المؤلفة في عصور بعينها أو موضوعات محددة من التاريخ الإسباني - بما في ذلك الأندلس - فكثيرة جداً يجد القارئ بياناً بها في بيبليوغرافية كل تاريخ عام مما ذكرناه ، وخاصة التاريخ الذي كتبه « بايستروس » والتاريخ الذي أشرف عليه منندث بيدال ، فإن قوائمهما البيبليوغرافية من أحفل ما عرفنا . وكذلك نجد مادة بيبليوغرافية في كتاب ذي قيمة كبيرة في تاريخ إسبانيا ألفه ثلاثة من أساتذة جامعة بلنسية وجعلوه مقدمة لتاريخ إسبانيا واسمه :

Antonio Ubieta, Juan Regalá, José Mariá Jover, Introduccion á la Historia de Espana, Barcelona ( Teide 1963 ) .

والخلاصة أن دارس تاريخ الأندلس لا ينبغي أن يغيب عن باله أنه يدرس تاريخ بلد إسلامي أوروبي ، فالعناصر الأوروبية جزء من تكوينه البشري والطبيعي ، والمراجع الأوروبية جزء من مراجعه ، ولا يكفي قط أن يطلع الإنسان على المراجع العربية سواءً أكانت قديمة أم حديثة ، لأنها في مجموعها تنظر من وجهة النظر العربية وحدها ، وتعتمد على الأصول العربية وهذا لا يعطى إلا جزءاً من الصورة ويبقى نصفها الثاني . وفي بعض الأحيان يكون ذلك النصف الثاني أهم من المراجع العربية .

مثال ذلك أن دراسة عصر الطوائف من خلال المراجع العربية ، لا يعطى إلا جانباً ضئيلاً من حقيقة الأوضاع في شبه الجزيرة الإيبيرية ، أما ملوك الطوائف فتتحدث عنهم مراجعنا بتطويل فتجعل مثلاً صورة المعتمد بن عبّاد قاضى إشبيلية التي تولى أمرها ، صورة رجلٍ سياسي بعيد النظر يحسن سياسة الأمور ويوجه الأحداث ، بينما هو كان في الحقيقة لا يمثل من الناحية السياسية أية قوة لها أثرٌ في سير الحوادث ، فهذا رجلٌ لا يملك قوةً عسكريةً تمكّن له من التأثير في الحوادث ، بل هو يدفع إتاوةً للملك النصراني - ملك قشتالة وليون - وهو أى الملك النصراني هو القوة المحركة للحوادث . وإذن فنحن إذا أردنا أن نؤرخ لإشبيلية في عصر الطوائف ، قد نأخذ بعض المعلومات عن بعض ما كان يجرى داخل إشبيلية ، ولكننا لا نعرف مصير إمارة إشبيلية كلها ، لأن الذي كان يقرر ذلك المصير هو

ملك قشتالة ، وعندما صار أمر إشبيلية في كفة الميزان ، كان المرابطون ، وهم مغاربة مسلمون وغير أندلسيين ، هم الذين تولوا مواجهة الخطر النصراني . وإذن فالذي نفيده من دراسة المراجع العربية شىء قليل ولا يعطى كما قلنا إلا جانباً من الصورة . ولا تكتمل هذه الصورة إلا بالدراسة المتعمقة ، للمراجع غير العربية ما بين إسبانية ولاتينية وبرتغالية وقطلونية .

وقد آن الأوان أن ندرك هذه الحقيقة وأن نعلم أن تاريخ الأندلس جزء من التاريخ الأوربي ، كما هو جزء من التاريخ العربي ودارسه ينبغي أن يحيط بالتاريخين وأن ينظر إلى المسائل من زاويتها العربية والإسبانية .

ونختم هذه المقدمة الببليوغرافية بأن نسأل كيف يمكن أن يفسر مؤرخٌ عربيٌ لا يعرف غير اللغة العربية والمراجع العربية ، اسم رجلٍ من أكبر علماء الأندلس وهو « ابن بشكوال » واسمه الكامل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الأنصاري ، فكيف يكون أنصاريًا واسم واحد من أجداده بشكوال ، وهو لفظ إسبانيٌ صرفٌ ؟ وأبسط ماتدل عليه هذه الظاهرة هي أن سلسلة آباء ذلك الرجل ليست عربيةً أنصاريةً خالصةً فقط بل عربيةً أنصاريةً إسبانيةً ، فلا بد أن جده مسعوداً تزوج من إسبانيةٍ اسم عائلتها بشكوال Pascual وكان لا بد من قراءة الاسم ونسب الرجل هكذا : أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود وبشكوال الأنصاري ، وهذه في ذاتها ظاهرةً اجتماعيةً جديرةً بالدراسة .

\*\*\*

## الأندلس

يعتبر فتح شبه جزيرة إيبيريا من أروع حلقات الفتوح الإسلامية الأولى . فقد جاء ذلك الفتح تتويجاً لجهاد العرب الطويل لفتح المغرب ، الذى استغرق كما رأينا حوالى سبعين سنةً ، ما بين نصر وهزيمة ومدٌ وجزر وكان ذلك دليلاً على حيوية الشعب العربى وإقدامه وإيمانه بدينه ونفسه ، بهذا الفتح الطويل وصل العرب إلى مضيق جبل طارق أو « بحر الزقاق » كما يسمى ، ووصلوا فى أوائل العقد الأخير من القرن الهجرى الأول / العقد الأول من القرن الثامن الميلادى إلى ساحل المحيط الأطلسى ، من طنجة شمالاً إلى سهل السوس جنوباً ، وبذلك أصبحوا على أبواب أوروبا من هذه الناحية . ومن دلائل حيوية الشعب العربى أنه لم يقف عند ذلك الحد وإنما تخطى بحر الزقاق ونزل شبه الجزيرة الإيبيرية وفتحها حتى وصل إلى أقصى شمالها ، ثم عبر جبال ألبرت التى تسمى البرانس خطأً ، وغزاً «غالة» وهى فرنسا اليوم حتى وصل إلى سبعين كيلو متراً جنوبى باريس . والمسافة ما بين قرطبة وما وصل إليه العرب شمالاً نحو ألف كيلو متر . والمسافة كذلك من أقصى موضع وصلت إليه جيوش العرب غرباً إلى دمشق نحو ثمانية آلاف كيلو متر ، كلها قطعها العرب محاربين منتصرين على أقدامهم أو ظهور الخيل والجمال . وذلك عملٌ لم يسبقهم إلى مثله أحدٌ فى التاريخ . ومن الواضح أن شبه جزيرة إيبيرية ، وهى ما يسميه العرب بالاندلس وما يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال ، كانت شاسعة البعد عن مركز الخلافة ، ويكفى أن نذكر أن المسافة بين دمشق وقرطبة سبعة آلاف كيلو متر ، وهذه المسافة يستلزم قطعها على ظهر فرسٍ جيّد أربعة أشهر ، فكانك لو أرسلت رسالةً من قرطبة إلى دمشق وصلت بعد أربعة أشهر ، وجاء الرد بعد أربعة أشهر أخرى . وذلك يصوّر لنا بعد هذه الأقاليم من مركز الدولة الإسلامية ، ومع ذلك فقد فرض العرب أنفسهم على ذلك البلد البعيد ، وحكموه وعاشوا فيه وحلّوه إلى بلدٍ عربى إسلامى ، واستمر سلطانهم هناك ما بين مدٌ وجزرٍ ثمانية قرونٍ ، وإذا كان الاندلس قد ضاع منا فى النهاية فذلك ليس بعجيبٍ وإنما العجيب أننا أقمنا فيه هذا العمر الطويل .

الاندلس هى الدولة الأولى التى أقامها العرب فى أوروبا . وقد كانت للإسلام

خلافتان على الأرض الأوربية : الأولى دولة الإسلام في الأندلس ، والثانية هى دولة الخلافة العثمانية في الشرق .

وهذه هى الناحية الأولى التى تهمننا وهى الميزة التى تميز بها الأندلس عن غيره من البلاد التى فتحها المسلمون ، فنحن هنا فى بلدٍ أوروبىٍ ونحن مع ملك أقامه العرب فى قلب الغرب الأوروبى بين فكى الأسد كما يقولون ، ومع ذلك فقد تمكنوا من تحويل ذلك البلد إلى مركز من مراكز الإسلام والعروبة . وذلك يشهد للجنس العربى بالتفوق والامتياز ، ويفسر لنا لماذا يعتبر العرب من كبار صنّاع تاريخ الإنسانية ، وقد قال المؤرخ الإنجليزي نيفيل بارير : إن الأندلس بالنسبة للعرب بلاد ما وراء البحار Overseas أى أنه كان بلاد المهجر البعيد الذى ينهض إليه كل رجلٍ جرىءٍ مغامرٍ يريد أن يفتح لنفسه باباً واسعاً من أبواب الرزق والرفاهية ، ومن البديهي أن يكون المهاجرون إلى الأندلس من خيرة العناصر العربية والأصول البربرية التى أسلمت وأظهرت قدرةً على مجابهة الصعاب . ويؤكد ذلك أن الأندلسيين جعلوا من وطنهم واحداً من أزهر بلاد الإسلام وأقاموا وراء البحر دولةً مجيدةً هى الدولة الأموية الأندلسية ودولاً أخرى غيرها ، وأقاموا صرح حضارة زاهرة لا زلنا نفخر بها إلى اليوم ومدّوا جسراً حضارياً عبرت به حضارة العرب إلى بلاد الغرب الأوروبى .

وتاريخ الأندلس على هذا قصة جهادٍ مجيدٍ وعملٍ متصلٍ مباركٍ ، وجهد شعبٍ قوئىٍ استطاع بالفعل أن ينشئ على أرضٍ أوروبيةٍ حضارةً عربيةً إسلاميةً ، تتميز عن غيرها من حضارات البلاد الإسلامية بطوابعٍ نعرفها بمجرد نظرةٍ على أى مظهرٍ من مظاهر تلك الحضارة كما سنرى .

### اسم « الأندلس » :

وعندما نقول الأندلس فإننا نعنى ما سادته العرب من شبيه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) لأن العرب عندما فتحوا الأندلس فتحوه كله إلى جبال الألبت كما قلنا ، وإلى خليج بسكاي الذى يسميه العرب « حائط إفرنجة » ، ثم أخذوا يتراجعون شيئاً فشيئاً حتى إذا قامت الدولة الأموية سنة ١٢٨هـ /

٧٥٦م كان العرب قد فقدوا الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة ، واستمر سلطان العرب على بقية البلاد حتى سقوط الخلافة الأموية الأندلسية سنة ٤٣٢هـ / ١٠٣١ م . وبعد ذلك أخذوا ينحسرون ويفقدون أجزاءً أخرى من شبه الجزيرة ، ولكن لفظ الأندلس ظل يطلق على ما بيد المسلمين من شبه الجزيرة ، حتى اقتصر فى النهاية على مملكة غرناطة ، فى الركن الجنوبى من شبه الجزيرة وهو يمثل ٨ / ١ ثُمَّن مساحتها . ومع ذلك ظل يسمى الأندلس ، وفى النهاية عندما لم يبق فى يد المسلمين إلا مدينة غرناطة كانت هى الأندلس وهكذا .

ولفظ الأندلس معرَّبٌ جاء من لفظ « الوندال » الذين يسمون فى اللغات الأوروبية « الفاندال أو الفاندالوس » . وهذا القبيل من المتبربرين غزا شبه الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى ، وانحدر إلى الجنوب تدفعه قبائل أخرى جرمانية ، حتى انتهى إلى الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة ، وهناك أقام زمناً طويلاً وسُمى ذلك الطرف الجنوبى باسم « فاندالوسيا أو واندالوسيا » ، وبهذا الاسم عرفه البربر الذين يقيمون على بحر الزقاق . وعندما وصل العرب قتل لهم إن هذه أرض « وندلس » ، وحرف « الواو » هو أداة التعريف فى لهجة بربر طنجة ، فعُرِبَ الاسمُ إلى « الأندلس » . وبهذا الاسم ظلت البلاد تعرف إلى نهاية الحكم العربى . ولا زال اللفظ فى صورة إسبانية هى « إندلوثيا » يطلق إلى اليوم على ثمانية محافظاتٍ صغيرة فى الثلث الجنوبى لشبه الجزيرة جنوبى نهر الوادى الكبير حتى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولية وإشبيلية .

وشبه جزيرة إيبيريا - وتشمل اليوم إسبانيا والبرتغال - إقليم واسع تصل مساحته إلى ستمائة ألف كيلو متر مربع . وإسبانيا وحدها ، وهى تحتل خمسة أسداس شبه الجزيرة ، تعتبر ثالثة بلاد أوروبا فى المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها ٥١٦,٠٠٠ كم ٢ - خمسمائة وستة عشر ألف كيلو متر مربع .

وشبه الجزيرة فى مجموعها عبارة عن هضبة متوسطة ، ارتفاعها ستمائة متر عن سطح البحر ، وهى أعلى بلاد أوروبا باستثناء سويسرا ، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعه على ثمانمائة متر ، وسلاسل الجبال التى يصل ارتفاعها إلى ألف وستمائة متر ، كثيرة جداً .

والحد الفاصل بين أوربا وشبه الجزيرة هي سلسلة الجبال التي تسمى باللغات الأوروبية « البرانس » ، وهي سلاسل من الجبال تقفل الطريق من شبه الجزيرة إلى جنوبي فرنسا ، فلا يعبر الناس إلا من ممرين في الشرق والغرب ، ومن ممراتٍ خلال الجبال تسمى « بالأبواب » . ومن هنا جاء لفظ اسمها في العربية وهو جبال ألبرت ومعناه جبال الباب أو جبال الأبواب . وبسبب هذا الحاجز الكبير، كان الفارق الحضارى بين مايقع جنوبيّ الجبال وشمالها ، فرقاً جسيماً يلاحظه الإنسان بمجرد انتقاله من إسبانيا إلى فرنسا .

وشبه الجزيرة مخمّسٌ تشقه سلاسل الجبال تجرى مستعرضةً ، وبين كل سلسلة من الجبال والتي تليها يوجد وادٍ يجرى فيه نهرٌ مستعرضٌ أيضاً ، ولهذا فإن شبه جزيرة إيبيريا ينقسم بالفعل إلى مناطقٍ مستعرضةٍ يلي بعضها البعض . ولكل منطقةٍ سلسلة جبالها ونهرها أو أنهارها . وهذه الأنهار معظمها يصب في المحيط الأطلسي وتتبع كلها من وسط شبه الجزيرة ، فهناك الحد الفاصل لمجارى المياه ، ولا نجد الأنهار الكبيرة التي تحمل الماء الوفير إلا في النصف الشمالى لشبه الجزيرة . وتلك الأنهار من الشمال إلى الجنوب من ناحية الغرب ، هي المنيو ثم الدويرو ثم تاجة ثم الواديانة أو الوادى أنه ثم الوادى الكبير وعليه تقع قرطبة وإشبيلية وهي قلب الأندلس الإسلامى ، ومن نهر الوادى الكبير يتفرع نهر شنيل ، وعلى فرعٍ من فروعه يسمى « حدارة » تقع غرناطة .

أما أنهار الغرب فليس فيها إلا نهرٌ واحدٌ كبيرٌ يطلق عليه اسم النهر وهو « إبرو » وتقع عليه برشلونة عاصمة إقليم « قطلونية » الذى استقل الآن استقلالاً داخلياً ، وكان وادى إبرو في أيام المسلمين يسمى بالثغر الأعلى للأندلس وعاصمته سرقسطة ، وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة في شبه الجزيرة . أما بقية الأنهار التي تصب في البحر المتوسط بعد نهر إبرو ، فصغيرةٌ نسبياً يسميها العرب بأسماء المدن التي تقع عليها ، فهناك نهر بلنسية الذى يسمى أيضاً بالوادى الأبيض واسمه في اللاتينية « توديا » ونهر مرسية وما إلى ذلك . وشبه الجزيرة في مجموعها إقليمٌ جافٌ بصفةٍ عامةٍ ، فلا تكثر الأمطار إلا في نصفه الشمالى أى إلى الشمال من وادى تاجة الذى تقع عليه طليطلة عاصمة شبه الجزيرة قبل الفتح العربى . وإذا نظرنا إلى شبه الجزيرة في جملة وجدنا أن

النصف الأغرني هو الشمالى؁ حيث الأنهار الضخمة وأراضى المزارع الواسعة؁ وفيما بين نهر تاجه ونهر المنىو توجد أوسع مناطق القمح فى أوروبا بعد الأوكراىنا فى روسيا؁ وهناك أيضاً أى فى الجزء الشمالى من شبه الجزىرة أراضى المراعى الواسعة التى تتربى عليها الماشىة الكبىرة والأغنام الوفرة الصوف وكذلك الخىول الكبىرة الحجم . وهناك أيضاً مناجم الحديد والفحم ومعادن أخرى — ولا بد أن نلاحظ أن القسم الذى ساهه العرب كان أوسع مساحةً بينما كان القسم الذى ساهه النصرارى أصغر حجماً ولكنه أكثر ثروةً ولكنه نتيجة لذلك كانت ثروته أوفر ولهذا كان الناس أيسر حالاً؁ وغذاؤهم أحسن؁ وكذلك كانت خيلهم أقوى؁ وذلك يفسر لنا لماذا كانت المعركة بين العرب وخصومهم معركةً عنيفةً دائماً؁ برغم أن المسلمىن كانوا يملكون القسم الأكبر ولكنه الأفقر؁ فلم يكن فى النواحى الداخلة فى الأندلس من الأقالىم الغنىة فعلاً إلى إقليم بلنسىة فى الشرق؁ وهى اليوم أعظم مناطق إنتاج البرتقال والأرز فى أوروبا؁ ثم ناحية إشبىلىة؁ وفيما عدا ذلك فإن بقىة البلاد الأندلسىة التى نفخر بها كانت تقوم فى مناطق فقيرة نسبياً؁ حتى قرطبة ذات الصىت البعىد تقع فى إقليم فقير فى جملة. ومن هنا نتبىن حقيقةً كبرى ينبغى أن نضعها فى أذهاننا عندما ندرس تاريخ الأندلس وهى أن العرب أخطأوا خطأ شديداً عندما جعلوا عاصمتهم مئىنة قرطبة على نهر الوادى الكبىر؁ فإن الوادى الكبىر نفسه إقليمٌ فقيرٌ؁ ثم إنك لا تستطىع أن تسىطر على شبه الجزىرة من بلدٍ يقع فى سدسها الجنوبى؁ ولو أن العرب جعلوا عاصمتهم طلىطة لتغىر وجه التاريخ؁ لأن طلىطة تقع فى وسط شبه الجزىرة تقريباً . ومن الوسط تستطىع بطرىقة أسهل؁ أن تسىطر على البلد؁ ثم إن طلىطة؁ وعلى مقربة منها مئرىد؁ وهى منشأةً عربىةً تقع فى وسط الإقليم الغنى حيث الغذاء وافرٌ والمراعى غنىةً ومصادر المعادن متوفرةً؁ وهى أسلحة الصراع الكبرى . ولكن العرب عندما فتحوا قرطبة كان لهم عذرهم فهم يريدون أن تكون قاعدتهم أقرب ما تكون إلى قلب دولتهم وبقىة عشىرتهم فى بلاد المغرب . وعلى أى حال فهذا هو الذى حدث وكانت له نتائج المعروفة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره .